Les opportunités et les impasses de la pastorale scolaire dans la société Libanaise pluraliste

فرص وتحدّيات الراعوية المدرسيّة في المجتمع اللبناني التعدّدي

"تلمذوا جميع الشعوب وعلّموهم أن يحفظوا كلّ ما أوصيتكم به (متى 28: 19)

هذه كانت وصية يسوع المسيح لتلاميذه قبل صعوده إلى الآب، أن يجعلوا الشعوب تلاميذاً، أي أن يعرفوه فيسيروا خلفه وهو يقودهم إلى محبّة الآب وُيشركهم في حياة الثالوث الأقدس. هذا ما فعله الرسل وهذا ما تزال الكنيسة تصنعه بعد ألفي عام، فهذا حقُّها وواجبُها المقدّسَيْن. حقٌّ وواجبٌ على الكنيسة، الأمّ والمعلّمة، أن تكون في خدمة الحقيقة التي عاشها وعلّمها يسوع. ومحور رسالة الكنيسة التعليمية هذه هو شخص يسوع؛ "فنحن لا نُعلّم إلّا بقدر ما نسمح للمعلّم الأوحد أن يكون حاضراً في كلامنا وتصرّفاتنا" كما جاء على لسان البابا القديس يوحنا بولس الثاني، في إرشاده الرسولي حول التعليم المسيحي في عصرنا.

ففي صلب راعويتنا نجد هذه الدعوة للدخول في علاقة شخصيّة، بنويّة، بين تلميذٍ ومعلّمه يسوع .ولأنّه لا فصل بين النموّ الروحي للإنسان ونموّه الثقافي والأخلاقي والعاطفي والجسدي ...أتت المدرسة الكاثوليكية لتجعل تنشئة الإنسان بكليّته محور رسالتها الإنجيليّة، المسيحية.

محور اهتمام مؤتمرنا السّنوي هذا هو الراعوية المدرسيّة، فما هي؟ على ماذا تقوم؟

الراعوية، هي خدمة واهتمام الراعي بخرافه، على مثال راعينا الأوحد يسوع المسيح .راعويتنا المدرسية هي امتداد لرسالة المسيح المعلّم .هي هذا النفس الرسولي الذي يهدف لبثّ روح الإنجيل ومحبّة المسيح في قلوب المنتمين إلى مؤسّساتنا التربوية . فهي قبل كل شيءٍ، شهادة الحياة المسيحية وإشعاع الأخلاق الإنسانية لكافة المعنيين بشؤون التربية في مدارسنا الكاثوليكية.

تتجسّد هذه الراعوية من خلال كافة الأنشطة الصفيّة واللاصفيّة التي تعتني بالحياة الروحية لتلامذة مدارسنا وتتوسّع لتشمل المربّين والموظّفين العاملين في مدارسنا.

تتجسّد إذاً من خلال المحطّات الروحية، الليتورجية وغير الليتورجية التي تتوزّع بين وقفات صلاة صباحية، قداسات ورياضات روحية وإحتفالات ومناسبات تواكب العام الدراسي وتخدم النّمو الروحي، الثقافي والإنساني لتلامذتنا .كما وتشمل أيضاً مساحات الإصغاء والتوجيه من خلال نشاط المرشدين الحاضرين لمرافقة من يحتاج، مرافقة شخصية ...تتجسّد أيضاً من

خلال ساعات التعليم المسيحي الذي لا يزال يُعطى في أغلب مدارسنا، ولو بتفاوت في وتيرة الحصّص الأسبوعية بحسب الأوضاع والمعطيات المحليّة .راعويتنا المدرسية تتجسد أيضاً بالخبرات الإنسانية التي نعيشها في مدارسنا، مع كافة طلابنا، في مختلف المؤسسات الإنسانية إلى جانب الآخر المختلف والفقير واليتيم والعجوز...

ولهذا نسأل، ما هي فرص نجاح راعويتنا المدرسيّة في المجتمع اللبناني التعدّدي؟ وما هي التحديات التي تتأتى من واقع هذا المجتمع عينه؟

إنه لمن المفيد، لا بل من الملحّ في بداية مؤتمرنا هذا، أن نتساءل عن فُرص نجاح وتحدّيات راعويتنا المدرسيّة إنطلاقاً من الإضاءة على المجتمع اللبناني اليوم .لأنه وقبل أن نسأل أنفسنا :أية بذار نجتهد أن نزرع وننمّي ...وجب علينا سؤال أنفسنا : في أي حقلٍ نبذر هذه البذار؟ فمن الضروري إيلاء بالغ الإنتباه إلى" الحقل "الذي علينا أن نبذره وهو العالم المعاصر، وبالتحديد مجتمع لبنان الذي ننتمي إليه، ونحن فيه وله.

وإنْ سَعينا وتمكنّا من النظر إلى مجتمعنا بالنظرة عينها التي كان يوجّهها يسوع لمجتمعه وزمانه، عرفنا جيّداً أيّ سبيلٍ نسلك وأيّة راعويةٍ نستلهم، من قلب وأحشاء الراعي الأول، راعي الرعاة، الحاضر أبداً وسط رعيّته.

هذا الجهد الذي نبذله لفهم المجتمع والتفتيش عن أفضل السبل لعيش ونقل البشارة فيه، هو ما نسمّيه التأقلم الثقافي أو الإنثقاف l'inculturation وهو أكبر تحديات العصر التي تواجه التبشير اليوم، على ما جاء في الدليل العام للتعليم المسيحي(21) .

إخوتي، أحبائي، إنّ مجتمع لبنان اليوم، مع كلّ ما يميّزه ويجعل فرادته، ليس معزولاً عمّا يصيب باقي المجتمعات، بفعل العولمة الحاصلة والتي سهّلت لها وسائل التواصل ...هذه العولمة التي جعلت مختلف الثقافات على تماس مع بعضها البعض، هي التي سببّت الكثير من المتغيّرات على المستوى الفكريّ والثقافي .فهذا الانفتاح والتواصل الحاصل بين سكان الأرض والذي هو حدثٌ إيجابي بحدّ ذاته، لا بل هو فرصة للتشارك وإغناء بعضنا البعض، ينتج عنه في بعض الحالات نتائج سلبيّة . فالثقافات المسيطرة والأكبر تبتلع الأصغر وتُفقدها هويّتها في حال كانت هذه الأخيرة ضعيفة المناعة وغير محصّنة لمواجهة تحدّي الانفتاح.

كذلك، فإن انفتاح الثقافات هذا وضعنا أمام إشكاليّات جديدة لم تكن مطروحة وتغيّرات متسارعة على المستوى الفكري والثقافي جعلت المجتمعات التقليدية (traditionnelles) تتطوّر وتتغيّر وتتحوّل إلى مجتمعاتٍ أكثر حداثة .وهنا يكمن التحدي الأكبر بالنسبة للتربية .لأن الفرق كبير بين عملية التربية في مجتمعٍ تقليديّ تحكمه العادات والتقاليد والضوابط الإجتماعيّة والعائلية ...وبين عمليّة التربية في مجتمع أكثر حداثة، حيث الفرد له مكانة مختلفة في قلب الجماعة لأنه وصل إلى درجةٍ مختلفة في وعيه لذاته ولحريته ولحياته وبالتالي لإيمانه.

ومن أبلغ سمات هذا التغيّر الثقافي الحاصل لمجتمعنا اللبناني بفعل العولمة، هو هذه العلمانية التي أخذت تتجلّى أكثر فأكثر على مستوى الحياة الشخصية الخاصة؛ والأكثر تأثّراً بهذه التحولات الثقافية هم المراهقون والشباب الناشئ .وليس من الغريب أن نسمع من القيّمين على التربية اليوم، في كافة المجالات، مدى صعوبة نجاح هذه العملية التربوية، والتي قامت بالماضي، ولمئات السنين، على تقنيات ووسائل بسيطة.

باختصار نقول، من دون فهم هذا المرحلة الإنتقالية التي يعيشها مجتمعنا اليوم، وهو ينتقل من مجتمعٍ تقليديّ بفعل انفتاحه عبر العولمة على مختلف الثقافات والحضارات، من غير الممكن أن تنجح البشارة والتعليم المسيحي وأية خدمةٍ راعوية في مؤسّساتنا.

فما هو انعكاس هذه المتغيّرات الثقافية على خدمتنا الراعوية لا سيّما في المدارس؟

• نبدأ من انخفاض تأثير ضوابط المجتمع على الفرد ...الأمر الذي يحثُنا في كافة مجالات التربية على الإتكال أكثر فاكثر على ضمير الفرد وأخلاقه وقناعاته وهذا ما يشُد كافة خدماتِنا نحو خيار المرافقة الشخصية والعناية الفرديّة ونحو احترام عقول تلامذتنا ونحو محاورتهم والوقوف على تساؤلاتهم وخبراتهم...

• شباب اليوم واعٍ ويكوّن آراءه الخاصة التي قد تصل إلى حدود النسبيّة في كل شيء ...هذا يحثّنا على ضرورة الإضاءة على الثوابت وتأكيد مرجعيّة الكتاب المقدس وتعليم الكنيسة الكاثوليكية .وفتح النقاش معه حول المفاهيم الأساسية كمفهوم الحرية والسعادة والعائلة والحب، والزواج والدعوة ...وهذه كلّها بإمكانها أن تجد مساحات أكبر للمعالجة، بالأخصّ، ضمن ساعات التعليم المسيحي.

• شباب اليوم حُرٌّ لدرجة انه لا يلتزم بما لا يعنيه أو يمسّه ولا يقتنع بما لم يختبره ...لهذا نحن مدعوّون للتفتيش عن المعنى وإبرازه وعن خلق فرصٍ ومجالات للعيش والإختبار .قد يكون مبدأ الإلتزام لوقتٍ طويلٍ من الأمور الصعبة عند أبناء جيل اليوم، لكنهم، عندما يعيشون الإختبار ويقتنعون، نجدهم يندفعون ويُعطون ذواتهم بسخاء في الإلتزام الذي يُحاكيهم من داخلهم ويلمسهم.

• شباب اليوم كثير الخيارات لدرجة قد لا يعرف ما يختار ...علينا مساعدته على اكتشاف دعوته الخاصة والفريدة التي خصّه الله بها وتفعيل مواهبه خلال مسيرته التربوية .وهنا تبرز أكثر فأكثر أهميّة تفعيل خِدمة المرشدين في مدارسنا، يُصغون، يرافقون، يشجّعون من يسألهم من التلامذة لبلوغ الأفضل الممكن.

• شباب اليوم يُحبّ التغيير وكل ما هو جديد ...فهو يدعونا للإبداع والتجدّد على مستوى الشكل والأسلوب في جميع مكوّنات راعويتنا.

• هو شبابٌ لم يعد يقبل أن يسير ضمن نظامٍ شمولي لا يأخذ بعين الإعتبار والتقدير لحريته وفرادته ...وبهذا يدعونا لشخصنة العلاقة الراعوية (personnalisation de la relation pastorale) أي تعزيز البعد الشخصي لتلامذتنا في كافة النشاطات الروحية والخبرات التي نقترحها عليهم في إطار الراعوية المدرسية .وبالفعل عينه نحن مدعوون لتعزيز مساحات التشارك والإصغاء حتى ولو كلّفنا ذلك إستثماراً أكبر في كوادر التعليم المسيحي والتنشيط الروحي والمرشدية المدرسيّة .علينا كما علينا الحذر من أن يتحوّلوا، بالأخص في المدارس الكبيرة الحجم، إلى أرقامٍ نتعاطى معها عن بُعد ونحجّمها أو نحكم عليها من خلال نتائجها الدراسية.

• إنّ شباب اليوم لا يُحبّ أن يُجبر على شيء فهو ينجذب لأسلوب العرض المجاني وليس الفَرْض، فهو يريد أن يكون مستقلاً، فاعلاً ومساهماً في خياراته دون أن ينفي هذا حاجته الدائمة، كفردٍ من المجتمع الشرقي، أن يعيش قناعاته ضمن جماعة ورفاق درب .هذا يحُثنا أن لا نملّ من خلق المناسبات والفُرَص والإقتراحات المتعددة والمتنوّعة، نعرضها بمجّانية وروح "ديموقراطية"، لنفتح المجال واسعاً للتلاميذ لكي يعيشوا اختبار الإيمان ويلمسوا محبة الله وعنايته.

• أمام تحدّي الإنفتاح، شباب لبنان اليوم مُعرَّضٌ لضياع الهوية، فهو يدعونا لمساعدته لاكتشاف تراثه وتاريخه والقيم التي تربّى عليها واعتادها وأيضاً لنساعده في استعادة المعنى العميق للعادات والتقاليد التي ورثها .خاصّة وأن هذا التراث، بجزءٍ كبيرٍ منه نتشاركه كلبنانيين على اختلاف انتماءاتنا المناطقية والدينية والطائفية.

• يُضاف إلى هذه التحديات ما هو ناتج عن الظروف الإجتماعية، الإقتصادية والأمنية، وكل ما يؤول إلى النزوح والهجرة وإفراغ شرقنا الحبيب من شبابه وخيرة أبنائه .كلّها أمور تدفعنا للعمل أكثر على بثّ الرجاء والشجاعة الرسولية في قلوب تلامذتنا، فنفتح لهم فُرص التعاون والتعاضد الأخوي مع من يعيشون في ظروف مُعدمة وفي اضطهادات ...وتدفعنا أيضاً لتحفيز الوعي والتربية على الإلتزام بحضورنا المشرقي والافتخار بكنزنا الحضاري العريق.

• كذلك، ولكي نحصّن شبيبتنا حيال التيارات المنغلقة، المتعصّبة، وما أكثرها في كل الديانات، علينا أن نعزز ثقافة اللاعُنْف والحوار والإصغاء إلى الآخر المختلف والتواصل والتشارك لاستكشاف الآخر كقيمة كبيرة واكتشاف إرادة الله في أن نكون معاً، في وطن الرسالة، لبنان.

باختصار، ولكي لا نطيل الكلام نقول، إن إنسان اليوم قد تغيّر .فإن أصرّينا على معالجة القضايا الجديدة والتحديات الجديدة بالوسائل القديمة، حصدنا الصدام والفشل .وما صعوبة تربية الأهل لأولادهم اليوم ومشاكل ومعانات المعلّمين مع طلّابهم إلا براهين على أننا أمام واقعٍ جديدٍ يتطلّب الكثير من الإصغاء، ليس من قبلنا كإكليروس ومكرّسين فقط بل وخصوصاً، من قبل الإختصاصيين في العلوم الإجتماعية التربوية والإنسانية لكي نصل جميعاً إلى رؤية جديدة ووسائل جديدة تتناسب وهذا الواقع الجديد لشبيبتنا .

وفي الختام، إنّ تحدّيات الراعوية المدرسيّة هي تحديّات إنسان اليوم مع كافة الإشكاليات المطروحة على نمّوه وثقافته وتربيته .فالآفات الإجتماعية تضرب الإنسان الذي هو قُدس الله .ولإعلاء شأن الرسالة المسيحي علينا العناية بالإنسان . فالتربية إنما هي لترقّي الإنسان؛ والإيمان هو لنموّ الإنسان وبلوغه ملء قامة المسيح في الإنسانية وهذه هي ملء قداسته .نعم، إن قضية رسالتنا المسيحية في المدارس والمؤسسات التربوية لتضعنا أمام تحدّي بناء الإنسان وترقّيه، في مجتمع يعاني ما يعانيه على كافة المستويات وفي كافة المجالات.

ولكن، ولأنه ليست جميع التحديات هي تحديات خارجية فقط، لا تأثير لنا عليها أو مسؤولية، نسأل أنفسنا ونحن نفتّش عن فُرَصِ نجاح راعويتنا المدرسية ونقول:

•هل نضع فعلاً الراعوية المدرسية في سلّم أولوياتنا كقيّمين على المدارس الكاثوليكية؟ هل نترجم هذه الإرادة من خلال حُسن اختيار الأشخاص وتنشئتهم و تأمين كافة حقوقهم كمعلّمين وما يلزمهم من وسائل و أُطر لإنجاح الرسالة؟ هل نتابع تطوّر هذه المادة من خلال منسّقين كفوئين؟ وفي المدارس الكبيرة الحجم، هل لدينا فريق العمل الكافي لتأمين فعاليّة في التنشئة المسيحية وباقي خدمات راعويتنا المدرسية؟ هل نُولي الحياة الروحية العناية اللازمة عبر إتقان التنشيط الروحي (l'animation spirituelle)والإرشاد المدرسي(l'aumônerie scolaire) ؟

•أين نحن من صياغةِ منهج جديد للتعليم المسيحي يأخذ بعين الإعتبار كافة معطيات الواقع ويستعين بالعلوم الإجتماعية والتربوية الحديثة .فكلّنا يعلم أن المنهج المعتمد لغاية اليوم والذي لم يتجدّد منذ العام1981 ، لا يزال يعتمد منطق تحديد مضامين المعرفة التي نرغب إيصالها بدل أن يحدّد الأهداف والكفايات أو المهارات التي يجب أن نعمل عليها مع الطلاب لاكتسابها .هذه المهارات لا تطال فقط بُعد المعرفة بل أيضاً البعد الشخصي وحُسن التصرف.

•وفي المدارس حيث الأغلبية الساحقة من التلاميذ غير المسيحيين، ماذا نفعل؟ أليس من الجائز أن نتطلّع إلى منهجٍ يحاكي المجتمع غير المسيحي فتُنقل إليه البشارة بطُرُقٍ تحترم ثقافته ومفاهيمه وخصوصيته، عبر العمل على القيم الإنسانية التي يلتقي حولها كُلّ إنسانٍ متحضّر والتي هي في أساسها إنجيليّة ومسيحية.

إخوتي أحبائي، كثيرة هي التساؤلات التي بإمكاننا أن نطرحها ونحن نبحث عن أفضل السبل لإنجاح الراعوية المدرسية . لكننا سنكتفي بهذا القدر احتراماً للوقت المعطى لنا في هذه المداخلة .ويبقى الثابت والأكيد، أنّ شهادة الحياة اليوميّة، لنا جميعاً، مكرّسين، إداريين ومعلّمين، تبقى أقوى العوامل المؤثرة في الرسالة المسيحية لمدارسنا .فهي تأتي لتؤكد أو تنفي مصداقيتنا في جميع خدماتنا .أعاننا الله في رسالتنا، فنحسن الشهادة لإنجيله، إنجيل المحبة والسلام وترقّي الإنسان.

بارك الله جهود كلّ من ساهم في التحضير لهذا المؤتمر، على أمل أن يلقى فيه كل واحدٍ الغذاء الذي ينفعه، في رسالة مدرسته وخدمته الراعوية .آمين